الرسالة الثانية

الدِّينُ وَالدّولة .. فى إسْــرَائيل

- تمهيد :
  - (أ) الدين والدولة فى الصراع السياسى
  - (ب) الحكومة الإلهية
  - (جـ) قضية العلم والدين
- إسرائيل المعاصرة
- اليهودية والدولة المعاصرة
- رسالة موسى
- الإسلام دين اللّه ، والدولة
- القومية كبديل عن دين اللّه

ورسالة محمد عليه السلام

تمهيد

هناك بعض المفاهيم أو بعض الحقائق يجب توضيحها قبل الحديث عن الدولة والدين فى الوقت الحاضر ، وقبل الحكم بصحة أو بخطأ جعل الدين من مقومات الدولة فى قرننا العشرين ، قرن التقدم العلمى والتكنولوجى والتطور نحو الإنسانية أو العالمية .

(أ) الحقيقة الأولى ـ الدين والدولة فى الصراع السياسى والاستقلال بالحكم فى المجتمع الأوربى :

لو أن الكنيسة فى روما لم تأخذ لنفسها دور الدولة وسلطة الحكومة ـ منذ أن انتقلت المسيحية إلى أوروبا ـ لما وُجد فى تاريخ المجتمع الأوروبى نزاع على السلطة بين ما يسمى « ديناً » وما يسمى « دولة » ولما عرفت فلسفة ما بعد الثورة الفرنسية فى آخر القرن الثامن عشر تبريراً للفصل بين الجانبين فى توجيه الحكم فى المجتمع الأوروبى .

. . . ولو أن الكنيسة الرومانية توفرت فقط على العناية بالمسيحية فى تطبيق سلوكها الأخلاقى ، دون أن تتطلع لأن تكون هيئة سياسية لما برز الاتجاه « العلمانى » فى فصل الدولة عن الدين فى نظام الحكم فى المجتمع الغربى ، فالاتجاه العلمانى إذ يرى عدم تدخل « الدين » فى الدولة فإنه يعنى بالدين الكنيسة كهيئة صاحبة سلطة ، ولكنه لا يعنى إطلاقاً إنكار القيم الدينية المسيحية أو عدم الأخذ بها وعدم احتضانها .

إن الجمهورية الفرنسية المعاصرة ـ وهى الخامسة فى سلسلة جمهوريات ما بعد الثورة الفرنسية ـ مازالت ترى نفسها حامية الكاثوليكية فى العالم ، بينما التاج البريطانى بدوره يعلن حمايته للبروتستانتينية [1] فى كل مكان .

---

(١) ووقوف بريطانيا فى الحرب الأهلية النيجيرية منذ قيامها فى سنة ١٩٦٨ ـ ضد بيافرا بينما تقف فرنسا للدفاع عن استقلال بيافرا يدل على أن كلا من الدولتين الاوروبيتين المعاصرتين فى اختلافهما يرجع إلى اختلاف تبنيهما للاتجاه المسيحى الخاص . فسياسة فرنسا العلمانية تصير حسبما تطلب دولة الفاتيكان فى الشرق أو الغرب . والرباط القوى بين فرنسا ودول أمريكا اللاتينية لا يرجع إلى الثقافة الفرنسية بقدر ما يرجع إلى الاتجاه الكاثوليكى المسيطر .

وإن الـــروح المسيحية فى الحكـومـــات العلمانية فى المجتمعات الأوروبية والأمـريكية تسود فى قوانينها ـ وبالأخص فى قـــوانين الأسرة ـ كمـا تسود فى مواقفها التى تتخذها فى الداخل أو الخارج . ودولة السويد ـ وهى أكثر الـدول الأوروبية تحـــرراً من التقاليد المسيحية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ـ فـإن عطفها على « بيافرا » الكاثوليكية ـ فى مواجهة الكثرة المسلمة فى نيجيريا ـ فى الحرب الأهلية الأخيرة تجاوز العرف الدولى ، وهى أكثر الدول حفاظاً عليه .

ولا شبهة إطلاقـاً فى أن المقصـــود بالفصل بين الـــدين والـــدولة فى اتجـاه العلمانية هو الفصل بين سلطة الكنيسة وسلطة الدولة .

* * *

(ب) الحقيقة الثانية ـ معنى الحكومة الإلهية ، وهى فى واقع الأمر حكومة الكنيسة الكاثوليكية :

فهذه الكنيسة ترى : أنها تحكم على الأرض ، نيابة عن اللّـه ، وهى بذلك مجسمة للّـه الأب ، والروح القدس ، فلها عصمة فى القـول ، وطاعـــة على المؤمنين بها : وإنها وحدها لها الحق فى تفسير الكتاب المقدس . والبابا ـ وهـو رئيس الحكومة الإلهية ـ تنتقل إليه هذه المبادىء الثلاثة :

١ ـ عصمة القول .

٢ ـ وحق الطاعة على المؤمنين بالكثلكة .

٣ ـ وحق تفسير الكتاب المقدس .

وفى شخص البابا يرتفع مستوى الإنسان العادى إلى مستوى القداسة ، بعـد أن تجسدت فيه الكنيسة ، وهى بـــــدورها تجسد المعبود فى ثـلاثيتـه : الأب ، والابن ، والروح القدس .

وإذا كان الذى يتصور الخـــلاف فى الاتجاه العلمانى بين الدين والدولـــة أنـه خلاف بين مبادىء المسيحية فى ذاتها والدولـة فى المجتمع الأوروبى فى توجيـه شئونها .. يخطىء فى العلاقة بينهما ، فكـــذلك يخطىء هـــذا الـــذى يتصور الحكومة الإسلامية على عهد الرسول عليه الصلاة السلام ـ أو على عهد الخلفاء الراشدين بعده ـ على أنها : « حكومة إلهية » أى حكومة معصومة عن الخطـأ

أو حكومة مقدسة ، وأن الإمام بدوره يحكم نيابة عن اللّه فى الأرض ، وأن له وحده حق تفسير القرآن الكريم .

فمبدأ « الاجتهاد » فى الإسلام :

١ـ يحول دون العصمة فى الرأى والقول فى شرح مبادىء الاسلام ويحفظ على الإنسان المسلم مستواه الإنسانى فى الخطأ والصواب .

٢ ـ ويعطى فى الوقت نفسه للفقه الإسلامى صلاحية ملاحقة الأحداث والتطورات فى حياة المجتمع الإنسانى .

وأى فرد مسلم ، وأية حكومة إسلامية تطبق كتاب اللّه فإنها لا تخرج عن دائرة « الاجتهاد » فى التطبيق ، أى تدور بين الخطأ والصواب فيه ، ولذا لا توجد حكومة « إلهية » فى الإسلام ، كما لا يوجد دين ودولة فيه ، أى لا توجد سلطتان : إحداهما سلطة الدين ، والأخرى السلطة الزمنية وهى الهيئة المشرفة أو الهيئات السياسية .

والحكومة الإسلامية إذن هى حكومة إسلامية تستند إلى كتاب اللّه فى التطبيق .

والإسلام تقنين لسلوك الفرد وسياسة الأمة معاً ، ولا يعرف الازدواج فى السلطة ، كما لا يعرف الفرق بين دين ودولة .

واللبس فى هاتين الحقيقتين فى مجتمعاتنا الإسلامية جاء نتيجة « للتقليد » والنقل عن تفكير الغرب ، دون أن تكون هناك أصالة لفهم المبادىء الإسلامية عند المقلدين والناقلين .

وهكذا : مبادىء المسيحية ركن أساسى فى نظام الحكم العلمانى القائم على الفصل بين السلطتين : الدينية والزمنية : فى تشريعه ، وفى سلوكه وفى مواقفه ، وربما لا نجد فى المجتمع العلمانى المعاصر ـ وهو خلاف المجتمع الإلحادى المادى ـ سلطة زمنية تتنكر للمبادىء المسيحية ، رغم أنها قد تكون فى نزاع مع سلطة الكنيسة .

وإذا لم ينص فى دستور النظام العلمانى على اعتبار المسيحية ديناً فلأن هذا النظام يريد أن يأخذ ـ على الأقل فى الظاهر ـ بمبدأ « المساواة »و « عدم التفرقة » بسبب الدين فى رعاية الأفراد وتطبيق القوانين التى تصدرها .

(جـ) الحقيقة الثالثة ـ إتجاه قلة من المفكرين والسياسيين إلى إبعاد المسيحية من حياة المجتمع العلمانى فى الغرب ، وهذه القلة إذ تتجه هذا الاتجاه تتأثر :

إما بطريقة العلم التجريبى المادى .

أو بالخصومة الحادة للكنيسة .

فالذين يتأثرون بالطريقة التجريبية وحدها فى مفهوم العلم يرفضون اعتبار « ما وراء الطبيعة » علماً أى يرفضون المعرفة التى لا تستخلص من «الشاهد» والتى تعود فقط إلى « المغيب » والدين هومن اللّه الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير .

ومن هؤلاء المفكرين :

« دافيد هوم David Hume » الفيلسوف الإنجليزى فى القرن الثامن عشر (١٧١١ ـ ١٧٧٦) الذى يرى أن الحقائق الدينية لا يمكن أن نعرفها على الإطلاق ، وإنما نعتقدها فقط .

« أوجست كومت Auguste Comte » الفيلسوف الفرنسى فى القرن التاسع عشر (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) والذى يعتبر أن المعرفة الإنسانية إذا ابتدأت باللاهوت ثم بما وراء الطبيعة فإنها تنتهى إلى العلم الوضعى ، وهو العلم التجريبى .

« ماكس في Max Weber » الفيلسوف الألمانى فى القرن العشرين (١٨٦٤ـ ١٩٢١) والذى يرفض ما وراء الطبيعة ، كعلم له اعتبار العلم التجريبى .

ومثل هؤلاء المفكرين علماء الاجتماع فى معارضتهم للدين فى أن يدخل دائرة « العلم » فيبعدونه عن تنظيم المجتمع والدولة تبعاً لذلك .

يرون العلم فى دائرة التجربة المادية وحدها ، ولا يقيمون وزناً « للتجربة النفسية » أو التجربة الذاتية (الروحية) التى تصعد بالمعرفة إلى اللّه جل شأنه عن طريق الصفاء النفسى أو البصيرة ، وهى تلك التجربة التى يتبناها المفكر المسلم محمد إقبال « كصنو » للتجربة المادية .

ومعرفـــة اللّه سبحانه وتعالى عندئـــذ نتيجة « للتجربة النفسية » كالعلـم الطبيعى الذى هو نتيجة للتجربة المادية .

وبرفض مثل هؤلاء المفكرين لدخول الدين مجـال العلم من جانب ، وبمحاولـة جعله فى نطاق التجربة من جانب ، وإن كـــانت تجربة من نوع آخر نشأت قضية « العلم والدين » .

ويترتب على اعتبـار الـــدين علمـــاً « تجريبيـاً » وجـــوب تأسيس الحيـــاة الاجتماعية على الأخـــذ بالمبادىء الدينية وجعل الدين كمقوم من مقومات نظـام الـدولة .

كما يترتب على اعتباره علماً فى نظر أصحاب « التجربة المادية » وحدها إبعاده عن شؤون الدولة وسياسة الحكم .

وإذن أى اتجـــــاه مـادى فى نظـام الحكم وسياسة الدولـــة يرى من الأمـــور الضرورية لصالح الدولـــة عـــدم مهادنة الدين فى أية صورة من صور المهادنة ، وحديثه عن العلـم ، ووصفـه المبادىء أو الظواهر بـ « العالمية » وتحكيمـــه ما يسمى بالأسلوب العلمى والمعالجة العلمية لأمر ما هو للحيلولة مبـــاشرة دون الدين وقضايا الإيمان باللّه .

وربما تعود بعض الدوافع إلى تشدد أصحاب الاتجاه المادى فى معارضتهم للدين باسم العلم التجريبى وقوفهم عاجزين عن تفسير :

« التثليث » فى أصل الوجود .

و « العصمة » للإنسان .

و « صكوك الغفران » .

و « كرسى الاعتراف » فى نظام الكنيسة فى المجتمع الأوروبى .

فهذه المبادىء تحول دون « الوحدة » المطلقة فى أصل العالم الطبيعى ، كما تحول دون « المساواة » فى الاعتبار البشرى لأفراد المجتمع .

ومن الـــذين تأثـــروا بالخصومـــة الحـــادة للكنيسة « فـرانسوا ڤـــولتير Francois Voltaire » الكاتـب الفـــرنسى فى القـــرن الثـامـن عشـر (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨).

ومن الأقوال التى تُنسب إليه قوله : « إذا لم يكن اللّه موجوداً فيجب على الإنسان أن يخترعه حتى لا ييأس من الشقاء الموجود فى العالم ، فنظام العالم القائم لا يبعث فى حقيقة أمره على الرضا ، ولذا يجب أن يتصور : أن قدرة اللّه غير محدودة ، وأننا سنحقق رسالته فى العالم ، والهدف الأعلى هو :

١ ـ تخفيف الشقاء فى العالم .

٢ ـ وتحقيق القيمة العليا التى هى العدالة ، وقيمتها هى قيمة « أبدية » فوظيفة وجود اللّه فى تفكيره هى وظيفة نفسية ، يحمل تصور وجوده على عدم اليأس من العالم فحسب .

* * *

وليس المجال الآن مجال توضيح الصلة فى الإسلام :

١ ـ بين الدين والدولة .

٢ ـ وبين الدين والعلم .

ويكتفى فقط بأنه طالما لا توجد حكومة إلهية فى الإسلام ، وطالما لا توجد هيئة خاصة ذات سلطة سياسية باسم الدين فيه تنازع ما يسمى بالسلطة السياسية الزمنية .. فلا توجد على الأقل خصومة بين الدين من جانب ، والدولة والعلم من جانب آخر .

وإلى مسئولية « الاجتهاد » فى الإسلام يعود الخطأ والصواب فى سياسة الحكم .

كما يعود إليه فى ذلك طريق السلوك العملى للأفراد فى الأمة .

والقرآن كتاب هداية للإنسان فى شئونه وفى وصوله ـ عن طريق معرفته ـ إلى ربه ، وهو للناس متساوين أمامه ، وليس مقسماً بعضه إلى مجموعة دينية، وبعضه الآخر إلى مجموعة كونية أو سياسية أخرى منهم .

* * *

أى رباط لإسرائيل المعاصرة فى إقامة دولة .. وبقاء دولة .. والتماسك فى إطار الدولة غير « اليهودية» ؟

(أ) أهو رباط اللغة العبرية ، وهى التعبير عن تاريخ بنى إسرائيل على أساس من اليهودية فى الكفاح من أجلها أو فى تحريفها وتأويلها ؟

(ب) أهو رباط « القومية » اليهودية وليست هناك قومية يهودية لا يحتوى مضمونها : اليهودية كدين ؟

(جـ) أهو اللغات العديدة التى تعلمها اليهود فى أوطانهم الجديدة فى العالم بعد أن تفرقوا إليها ، أو هو التاريخ المختلف للشعوب التى استقر بين أبنائها هؤلاء النازحون اليهود ؟

أهو القيم الإنسانية الفلسفية البحتة التى تعلو بالشعب اليهودى فوق الشعوب وفوق الأديان ؟

(أ) وهل هذه القيم تصلح لأن تكون الرباط بين اليهود ، ولا تصلح لأن تكون الرباط بين أفراد شعب آخر من شعوب البشرية ؟

(ب) ثم هل توجد فلسفة غير متحيزة . فلسفة فوق مستوى الشعوب والأجناس ، وفوق الأديان جميعها ؟

* * *

إن اللغة العبرية لو اتخذت الرباط المشترك فى إقامة دولة إسرائيل المعاصرة ـ وهى تعبر فى تاريخ إسرائيل عن اليهودية فى مراحلها المختلفة ـ فليست إذن اللغة العبرية المكونة من ألفاظ وتراكيب هى الرباط . إنما مضمونها التاريخى ، وهذا المضمون ذو صلة وثيقة باليهودية كدين .

والقومية اليهودية ليست فى تحليل واقعها سوى الوعاء التاريخى والدينى واللغوى ، فإن اتخذت هذه القومية الرابطة فى دولة إسرائيل المعاصرة فاليهودية تمثل القسط الواسع ، والمتميز فيها .

وليست هناك قومية تعتمد على لغة القوم وحدها كتعبير وأساليب ، وإنما أية لغة هى كائن حى ، مظهره : التعبير باللفظ والتركيب ، وحقيقته : تاريخ القوم الذى تنتسب إليه . وأخص ما يحمله القوم ـ أى قوم ـ هو عقيدته ، وتقاليده ، وكفاحه فى سبيل استقلاله أو سيادته .

والقوم الذى يحافظ على استقلاله وسيادته هو ذلك الذى تميزت شخصيته .

والعناصر الأساسية فى شخصية أى قوم من الأقوام هى :

اعتقاده الخاص برسالة معينة فى حياته .

وتقاليده التى تربط بين أفراده .

أما اللغات العديدة التى تعلمها النازحون من اليهود وسط الشعوب التى استقروا بها ، وأما تاريخ هذه الشعوب التى استوطنوها فإنها ـ هذه وتلك ـ لا تصلح أن تكون الرباط فى إقامة دولة ، وإن صلحت أن تكون وسيلة ترابط بين مجموعة وأخرى من اليهود .

والقيم الإنسانية التى تدعى أية فلسفة تجردها عن التحيز ، وبالتالى تدعى أنها فوق الشعوبية والمذهبية الطائفية والدينية . . التى تدعى أنها « عالمية » لا توجد بعد حتى الآن . وتوجد يوم يوجد « الإنسان العالمى » الذى يفكر تفكيراً عالمياً فى الإنسانية وحدها ، لا يتأثر فيه ببيئة ، ولا وراثة ، ولا بمحدودية الإنسان نفسه .

ويستحيل وجود هذا الإنسان إلا إذا وُلِدَ ونشأ على هذه الأرض ، وما يُدَّعى : أنه تفكير عالمى اليوم فلا يعدو أن يكون تفكيراً طُلب فيه أن تتجرد بعض الشعوب من خصائصها لصالح شعب واحد فيها ، فالفكرة « الماسونية » مثلا وإن ادعت فى طابعها « العالمية » فهى فى خدمة « إسرائيل » منذ وجود هذه الفكرة .

اللغة العالمية « الاسبرانتو » لا تعبر عن تفكير إنسانى عالمى . بل هى بالأحرى عامل لتذويب خصائص الشعوب ومحاولة دمجها وإزالة الواصل بينها فى الاعتقاد والروابط الخاصة لصالح مجموعة مشردة ، هى اليهود ، كى تعيش فى تسلل واطمئنان ، وكى تمارس نشاطها المالى

والعقلى فى غيبة من الوعى الوطنى الذى تحييه اللغة الوطنية .

* * *

● اليهودية والدولة المعاصرة :

ولكن إذا صلحت اليهودية ـ أو تعينت ، دون اللغة العبرية ، ودون القومية اليهودية ، ودون فلسفة القيم غير المتحيزة ـ أن تكون الرباط بين اليهود فى العالم أو فى أى مكان منه ، هل تصلح مع ذلك أن تكون أساساً لدولة عصرية ؟ . . لإسرائيل كدولة تحاول أن تثبت وجودها ؟

إن الدولة « العصرية » هى التى تكون لجميع الأفراد فيها : حمايتها للجميع على السواء ، والعمل فيها لا يُحرم منه راغب فى العمل بسبب عنصره، أو طائفيته ، أو عقيدته ، أو لغته .

هى الدولة التى تتيح لجميع الأفراد حرية ممارسة العبادة ، وعدم الإكراه فى الدين . هى التى لا تميز مجموعة من أفرادها فى الاعتبار البشرى على مجموعة أخرى فيها ، على الأخص لسبب الدين أو العنصر .

١ ـ فهل فى اليهودية ما يحول دون أن تكون دولة إسرائيل دولة عصرية إذا قامت على أساس منها ؟

٢ ـ هل فى اليهودية ما يجعل اليهود وحدهم أصحاب ميزة فى الاعتبار البشرى على من عداهم فى العقيدة فى دولة إسرائيل المعاصرة؟

إن الرجوع إلى اليهودية فى صلتها برسالة اللّه ـ وهى رسالة إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ـ يمكن أن ينير الطريق إلى جواب هذا السؤال .

وخير مصدر نرجع إليه هو القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

* * *

(١)النمل : ٧٦ ، ٧٧

● رسالة موسى و اليهودية :

إن رسالة موسى ـ كما أُنزلت وكما صوَّرها القرآن الكريم ـ تختلف عن « اليهودية » التى يتبعها اليهود والتى يتخذون منها أساساً للترابط فى قيام دولة إسرائيل المعاصرة . يقول اللّه عز وجل فى وصف رسالة موسى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ (١) .

فقد وصف « كتاب موسى » بأنه كان قبل القرآن شاهداً عليه ومؤيداً لما جاء به وهو ـ أى القرآن ـ لذلك إمام ورحمة للناس جميعاً ..

بينما يقول فى وصف اليهودية بين بنى إسرائيل :

﴿ وَقَالُوا (أى أهل الكتاب) كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللّه وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللّهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً ، وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (٢)

﴿ أَمْ تَقُولُونَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى ، قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ ﴾ (٣) .

فالقرآن ـ فيما يحكيه عن المولى جل شأنه هنا ـ لا يقبل « اليهودية » أو «النصرانية » كدين لهداية البشرية وإنما دين اللّه مصدر هدايته هو : ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ فاليهودية أوالنصرانية دين فريق معين من البشر ، وليست الدين الذى هو للناس جميعاً ، وهو وحده الذى عند اللّه . وهو الدين الذى جاءت به الرسل جميعها .

---

(١) هود : ١٧ (٢) البقرة : ١٣٥ ، ١٣٨

(٣) البقرة : ١٤٠

ثم فى قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

ينفى أن يكون إبراهيم عليه السلام يهودياً ، ثم يثبت أنه كان مسلماً ، وهذا يوضح أن هناك اختلافاً وفجوة بين ما لليهود من يهودية ... وبين ما عليه المسلمون من إسلام الذى هو رسالة اللّه منذ إبراهيم حتى محمد بن عبد اللّه عليهما الصلاة والسلام .

وتختلف اليهودية عن كتاب موسى ، كما تختلف عن ملة إبراهيم ، وعما أنزل إلى الرسل جميعاً .

فكتاب موسى ، ورسالة إبراهيم ، وما أنزل على الرسل من بعدهما هو الإسلام الذى جاء به القرآن مصدقاً لما بين يديه من هذه الرسالات . وإذن :

هنا رسالة اللّه ، أو الاسلام . وهى الرسالة الإلهية منذ إبراهيم ... حتى موسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

وهنا شىء آخر يختلف عنها وهى : يهودية بنى إسرائيل .

والحديث كذلك عن اليهودية ليس هو الحديث عن دين اللّه أو عن رسالته للبشرية التى هى الإسلام منذ إبراهيم عليه السلام .

والسؤال الآن : بم تختلف اليهودية عن كتاب موسى ؟

ويجيب القرآن الكريم أيضاً عن هذا السؤال فى مثل مايذكره قول اللّه تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ، بَلْ أَنْتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) .

فكل من اليهود والنصارى صنع فى رسالة اللّه ما يجعلها مصدر تميز لهم ، بحيث يتجاوزون هم فى أنفسهم عن طريق التأويل فيها مستوى الإنسان إلى مستوى آخر أقرب إلى اللّه ، وهو مستوى الأبناء ، أو الأحباء .

وقد كان بنو إسرائيل يَدَّعون أنهم أولاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولذا لا يُعاقبون على ذنوب يرتكبونها ، وإن عوقبوا عليها - على أسوأ

---

(١) آل عمران : ٦٧ (٢) المائدة : ١٨

الفروض ـ ولمدة قصيرة ، ولذا جاء القرآن ـ كرسالة للّه ـ ينفى هذا الادعاء ويؤكد أن الناس جميعاً سواء أمام الجزاء ، وأنه لا فرق بين مجموعة وأخرى ، ولا بين شعب وآخر فى ذلك .

جاء قول القرآن هذا فى قوله : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .

فشعب بنى إسرائيل ليس شعباً « مختاراً » يتميز عما سواه من الشعوب كما تنطق رسالة اللّه فى القرآن ، وإن ادعى اليهود ذلك لأنفسهم .

ثم إن الذين يكفرون بـ « روحية » الدين تحت تأثير الاتجاه المادى فى الإيمان باللّه ، ويباشرون هذا الاتجاه فى ارتكابهم الجرائم الاجتماعية ، رغم إعطائهم العهد والميثاق على عدم ارتكابها ، لا يُستبعد منهم أن يخالفوا هذه الروحية فى تمييز أنفسهم عن سواهم بعد أن يعلنوا الإيمان بها .

١ـ فقد طالبوا برؤية اللّه عياناً كطريق للإيمان به : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ، ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ ﴾ (٢) .

٢ ـ وباشروا الجرائم الاجتماعية رغم المواثيق المؤكدة على عدم ارتكابها : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

---

(١) البقرة : ٨٠ ـ ٨٢ (٢) النساء : ١٥٣

الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

واستمر شعب بنى إسرائيل تحت تأثير « المادية » قروناً وأجيالاً عديدة حتى اليوم ، رغم وجود سلسلة من الأنبياء توضح لهم رسالة موسى ، ورغم أن عيسى جاء على إثرهم برسالة الله إليهم مرة أخرى ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ ﴾ (٣) ، ﴿ وإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ (٤) .

ومما اختلفوا فيه عن كتاب الله قولهم : انهم شعب الله المختار . ومع ذلك ظلوا ماديين ومدعين لأنفسهم بسبب ماديتهم ما يتفوقون به على غيرهم ، ولهذا كانوا ظالمين لأنفسهم .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ (أى عن كتاب الله) ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (٥) .

فبنو إسرائيل ظلوا مختلفين عن دين الله ورسالته على عهد موسى ، ثم اختلفوا كذلك عن دين الله ورسالته على عهد عيسى : منهم من كفر به وبرسالته . ومنهم ـ وهم قلة ـ أصبحوا حواريين له . وهم الذين أخذوا اسم « النصارى » من أبناء هذا الشعب الإسرائيلى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) البقرة : ٨٤ ـ ٨٥
(٢) المائدة : ٤٦
(٣) الحديد : ٢٧
(٤) الصف : ٦
(٥) الزخرف : ٦٣ ـ ٦٥
(٦) آل عمران : ٥٢

واختلافهم إذن عن دين اللّه ورسالته ـ سواء على عهد موسى ، أو على عهد عيسى عليهما السلام ـ هو على نحو ادعاءاتهم التى سجلها القرآن الكريم عليهم فيما يحكيه عنهم :

من قولهم : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّه وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ (١) .

وقولهم : ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً ﴾ (٢) .

وقولهم : « إن إبراهيم كان يهودياً » فيما ينفيه القرآن فى قوله : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلا نَصْرَانِياً ولكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً ﴾ (٣) .

﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾ (٤) .

ومن قولهم : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّه ﴾ (٥) .

﴿ وأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْه وأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ (٦) .

وقد جاء القرآن بعد ذلك يناشدهم عدم الغلو فى الدين ، وعدم اتباع الهوى. ولكن ظل نداؤه إياهم دون جدوى . واستحقوا بسبب ظلمهم لأنفسهم واختلافهم عن دين اللّه اللعن من اللّه جلت قدرته :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ * لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾(٧) .

فاستعلاء شعب إسرائيل اليوم فى دولتهم المعاصرة على أساس من عقيدة « اليهودية » يحول دون أن يكون «الدين » من مقومات الدولة كدولة عصرية ، يجب أن تسوى بين جميع الأفراد فى الاعتبار البشرى وفى حرية العقيدة .

---

(١) آل عمران : ٥٢ (٢) المائدة : ١٨ (٣) البقرة : ٨٠.

(٤) آل عمران : ٦٧ (٥) النساء : ١٥٦ (٦) النساء : ١٥٧

(٧) النساء : ١٦١

وتأثر شعب إسرائيل اليوم فى دولتهم المعاصرة بالاتجاه المادى ـ الذى ظل طوال تاريخهم ـ لا يجعل « اليهودية » أيضاً ديناً ، حتى يعتبر أو لا يعتبر من مقومات دولة عصرية ، أى أنه يحول دون اعتبار اليهودية ديناً أولا .

و«اليهودية» إذن لا تصاحبها خصائص الرسالة الإلهية وخصائص دين اللّه وأبرز هذه الخصائص :

أولا ـ المساواة فى الاعتبار البشرى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لتعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

وثانياً ـ « روحية الدين » . وهى تلك الروحية التى تحول دون الجرائم الاجتماعية فى الأموال والأعراض والأنفس ، والتى تحمل على تجاوز دائرة الطفولة البشرية فى التفكير والاعتقاد ، فلا يقف تفكير المؤمن بدين اللّه وروحية هذا الدين عند حد المحسوس والمشاهد ، كما لا يجمد إعتقاده وإيمانه بما يحسه فقط ، ويرفض كل ماعدا المحس إن فكر أو اعتقد ، ولذا يرفض الإيمان باللّه لأنه لا يُحس : ﴿ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ ، لا إِلَهَ إِلاَ هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ * لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(٣).

وإذا حال « عدم المساواة » فى الاعتبار البشرى دون صلاحية ما يدعى له الدين أو العقيدة من أن يكون ديناً أو عقيدة ، ففقدان « روحية الدين » أو الوقوع تحت تأثير الاتجاه المادى أكثر إبعاداً لما يدعى : أنه دين ، من أن يكون ديناً .

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) سبأ : ٢٨

(٣) الانعام : ١٠٢ ، ١٠٣

فالاتجاه المادى من شأنه أن يُفَرِّق حتى بين الأخوة ، والدين من شأنه أن يُكَتِّل ويُجَمِّع حتى بين الأعداء : ﴿ . . وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١) .

الاتجاه المادى يشجع « الأنانية » و « الفردية » ، والدين يشجع روح الجماعة والمشاركة ، على حساب الذات وشهواتها ، و« الأنانية » ـ هى داء المجتمع وعدوه الأول ..هى مصدر الخصومات والأحقاد . . هى مصدر الاستغلال والاحتكار . . هى مصدر العبث والفساد عن طريق الترف والمبالغة فى المتعة المادية . . هى مصدر القتل وإشاعة الفحشاء والمنكر . . هى مصدر الشرك والانتهازية والنفاق .

ولذا لا يصدق إطلاقاً أن أية أيديولوجية تدعو إلى المبادلة أو المنفعة « المادية » وحدها تصبح عقيدة أو ديناً (فضلا عن أن تكون ذات أثر إيجابى فى حياة من يدعى أنهم يؤمنون بها) . . لا يصدق مطلقاً : أن مذهباً مادياً فى الحياة يشيع روح الإنسانية أو يستهدف المستوى الإنسانى فى المجتمع .

الاتجاه المادى يطلب اقتناص الفرصة فى جمع المال والمتع الدنيوية ، والدين يطلب الزهد فيها لصالح الإيمان باللّه والقيم العليا ، يطلب « التضحية » حتى بالنفس بعد المال والولد .

و« اليهودية » المادية إذن ، و «اليهودية » التى تدعى أنها دين «النخبة» ودين « الشعب المختار » لوتأسست عليها الدولة العصرية ، دولة المساواة فى الاعتبار البشرى لكانت عوامل الفرقة فيها متعددة ولكان الصراع الداخلى أشد وأعنف فيها . وهى عوامل العنصرية من جانب ، والانتهازية المادية من جانب آخر .

ولكنها فى الآونة الحاضرة لا يبدو التفرق فى مجتمعها ولا التمزق الداخلى

---

(١) آل عمران : ١٠٣

فيه بسبب التركيز على«توسعاتها» وعلى ما يضمن لها شبه الاستقرار ، ويكفل لها أمناً خارجياً .

وعوامل العنصرية إذا أوحت بها عقيدة كان تمزيقها للوحدة الداخلية أمراً لا مفر منه إن عاجلاً أم آجلاً . وعوامل الانتهازية المادية لا تسبب فرقة الأنانية فحسب ، وإنما مع ذلك تجعل الأخ يحقد على أخيه ويغدر به ويتسلط عليه إن أمكن ، فى سبيل تحصيل المتعة المادية .

* * *

● الإسلام دين اللّه ، والدولة :

وإذا كانت رسالة اللّه لعيسى ابن مريم عليه السلام تحوّلت إلى مسيحية الكنيسة . وأقامت هذه عليها سلطة سياسية وحكومة إلهية معصومة عن الخطأ، ومن شأنها عندئذ أن تحول دون اعتبارها مقوماً فى « دولة إنسانية » تصيب وتخطىء فى تقديرها .

وإذا كانت رسالة موسى عليه السلام قبلها تحولت إلى دين « النخبة » و« شعب اللّه المختار » . . تحولت إلى « اليهودية » ومن شأنها عندئذ أن تحول دون اعتبارها مقوماً فى « دولة عصرية »لا تفرق بين الأفراد فيها، ولا ترى لـ « الشعوبية » أثراً فى تمييز هؤلاء الأفراد بعضهم عن بعض ، فإن الإسلام دين اللّه ورسالة محمد بن عبد اللّه عليه الصلاة والسلام ، وقد جاء مصححاً لاختلاف الرسالتين السابقتين قبله ، ولبيان ما اختلف فيه أهل الكتاب هنا وهناك عن كتاب اللّه ، يضع الناس جميعاً سواءً أمام الاعتبار البشرى ، ويرفع العصمة عن الإنسان إلا فى نطاق ما يكلف به رسوله لتبليغه من وحى اللّه إلى الناس كافة .

فالإسلام دين اللّه تعالى ، ورسالة محمد بن عبد اللّه عليه الصلاة والسلام ، لا يعرف :

١ـ التفرقة العنصرية ولا الشعوبية أساساً لتقدير الناس والأفراد ، وإنما يعرف مقياساً واحداً تقاس به منازلهم ومستوياتهم . وهومقياس « التقوى » أو السلوك الإنسانى المهذب أو المستوى البشرى الفاضل . فهو لا يبدأ بالتفرقة

بين الأفـــراد ، وإنما يرجىء التفاضـــل بينهـم إلى وقـــت مسئوليتهـم عن التصرف والسلوك ، وإلى وقت حريتهم وعدم إكراههم على الفعل ، بعـد أن يضمن لهم أن رسالته قد بُلّغت إليهم .

وبذلك يصحح الإسلام ما اختلف فيه بنو إسرائيل عن كتاب اللّه ودينه ، وهو كتاب موسى ومحمد على السواء . وقد آذى اللّه اليهود بسبب تأويلهم لدين اللّه وإدعائهم أنهم « شعب اللّه المختار» ، وسلط عليهم آلام « التفوق » فى العنصر والعرق فيما ادعته أوروبا من « الآرية » وتفوقها على «السامية » فى النصف الأول من قرننا الحاضر .

٢ ـ ولا يعـرف الإسلام أيضاً القداسة والعصمة للبشر . فالناس كما هـم سـواء فى الاعتبار البشرى ، هم سواء أيضاً فى التعـــرض للخطـــأ والصواب ، والفاضل بينهم ليس هو الذى لا يُخطىء ، وإنما هو الذى لا يقصد إلى الخطأ .

وبهذا أيضاً يصحح ما اختلف فيه النصارى عن كتـاب اللّه ودينـه ، وهو كتاب موسى ، وعيسى ، ومحمد على السواء .

والاتجاهات الراديكالية ـ وهى الاتجاهات المتطرفة فى الفلسفة الغربية ـ فى المجتمعات الأوروبية هى فى الأغلب وليـدة استنكار «القداسة» و« العصمة » للإنسان فى دين الكنيسة .

كما أن تصادم الأحداث فى تطور الحياة للمجتمعات المسيحية المعاصرة مع نظام الكنيسة يعود كـــذلك إلى المبدأ الكنسى وهو: « الربط بين اللّه وابن اللّه والروح القدس والإيمان بحلول الوحـدة «الثلاثية» بينها فى رئيس الحكومة الإلهية . الذى له وحده حق القول والتفسير وحق الطاعة والولاء » .

وهكذا .. الإسلام دين اللّه ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام لا يعرف تفرقة عنصرية أو شعوبية . ولا يعرف حكومة إلهية ولا إنساناً معصوماً فى الحكم أو التقدير والرأى ، ولا إنساناً مقدساً فوق مستوى البشر وأقرب إلى مستوى الملائكة ، فضلا عن مستوى اللّه جل شأنه .

الإسلام يعرف الإنسان كإنسان ويُقَدِّم له المشورة والهداية كصاحب طبيعة بشرية يعرض لها الخطأ والصواب ، والـــزلل والســداد ، والمـــرض والصحـــة ،

والفقر والغنى ، والطفولة والشيخوخة ، والموت والحياة ، والضعة والشرف بالمال أو بالمعصية أو بالحكم ، والتواضع والطغيان . يعرض له النقيض ونقيضه من صفات الوجود .

ويريد الإنسان فحسب أن لا يسقط إلى مستوى الحيوان فى إغفال العقل والقلب ، وأن يُركِّز فقط على المعدة والفرج .. يريد للإنسان أن يكون لبنة مصقولة فى بناء مجتمع إنسانى كبير . وصقلها عن طريق الحد من « الأنانية » وإفساح مجال لمعنى الجماعة ومشاركة الحياة والوجود .

* * *

● القومية كبديل عن دين اللّه ورسالة محمد ﷺ :

والآن إذا ترك الإسلام ـ دين اللّه ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام ـ فى المجتمعات الإسلامية ، وأبعد عن أن يكون من مقومات الدولة العصرية فذلك يرجع إلى أحد أمرين :

١ ـ إما إلى تقليد المجتمع الأوروبى فى غربه أو فى شرقه ـ تقليداً ينطوى على التبعية المطلقة لتطور هذا المجتمع وأحداثه التى تتعاقب فيه ، فى إعراض عن مراجعة الإسلام وتاريخ المجتمع الإسلامى .

٢ ـ وإما سعياً للتخلص من مبادىء الإسلام فى الحكم ، وهى تلك المبادىء التى لا تساعد على أن تكون السلطة للتسلط ، ولا على أن يكون الحكم لجاه الحكم .

تلك المبادىء التى أدناها العدل ، وأرفعها الإحسان . . والعدل إذا كان توازناً فى المبادلة والمعاملة وإحقاق الحق لكل صاحب حق ، فالإحسان هو إعطاء من إنسانية المحسن ، ممثلاً فى عمل خير إنسانى أو فى مال أو فى معاونة للفقير ، أكثر من الأخذ منه .

تلك المبادىء التى تجعل « الحرية » أمراً مكتسباً للفرد لا توهب من أحد سواء ، وإنما تنزع عن طريق العبادة للّه سبحانه وتعالى من هوى النفس وشهوتها ، واكتسابها هو « جهاد أكبر » وهو أعظم شأناً من جهاد «الميدان »

ولقاء الأعداء . لأن هذه الحرية لوتحققت لدى الأفراد فى المجتمع كانت هى سبيل النصر فى ميدان القتال فى كل مرة يواجه فيها الأحرار من المؤمنين عدو اللّه وعدوهم . ولكن النصر فى ميدان القتال مرة لا يكفل حرية المجتمع الدائمة التى تتجلى فى قوته وفى تماسكه ، وفى بقائه معتزاً بشخصيته التى تميزه عن غيره ، وتجعله مستقلا غير تابع إلا للّه وحده جلت قدرته .

و« القوميـــة » التى يحـاول بعض مدعى التفكير الاجتماعى من الأجانب ـ من أمثال : ساطع الحصرى (١) وجورج حبش (٢) وميشيل عفلق (٣) ـ أن يجعلها كل منهم « بديلا » عن الإسلام فى الترابط إن هى إلا وعاء لا يحتوى إلا على الحقد على الإسلام ، بعد جهل بمبادئه ، وفى الوقت نفسه بعد وعى بآثاره الإيجابية وفى تجميع الأمة وفى نهضتها بعد استقلالها السياسى .

إن « القومية » التى يعنيها ساطع الحصرى قومية ألفاظ ، وقومية تاريخ لا يصور أحـداث أمـة كـانت لهـا فى أجيالها المستقبلـة ، فهى قومية جسم لا روح فيه .

و« قومية » جورج حبش ، وميشيل عفلق ، قوميـة إلحـاد بـدين اللّه ، وقومية « استيراد » لفكر متعثر يقوم على الدعوة لتنمية « الحقد » فى النفوس ويضع الغدر واللاإنسانية فى ضروبها المختلفة أساس السلوك ، كما يضع الأفراد فى الأمة فى متاهة الخصومات ودوامة النزاع وسوء العلاقات .

. . . هى « قومية » تحيل مجتمع « القوم » المطمئن الآمن على نفسه وعلى رزقه إلى مجتمع يكفر بنعم اللّه فيقع فى اضطراب الجوع والخوف ويشق عليه أمر الحياة . وهذه سنة لا تتغير فى حياة المجتمعات : ﴿ وضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾(٤) .

---

(١) الذى لا يُعرف مذهبه ومعتقده بقدر ما يُعرف بُعده عن العرب والعربية.

(٢ ، ٣) اللذان لا يعرف ولاؤهما للكنيسة بقدر ما يُعرف عداؤهما للإسلام والمسلمين .

(٤) النحل : ١١٢

. . . هى قومية تدعو إلى الوثنية المادية : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ (١) .

* * *

إن الإسلام دين الله ، ورسالة خاتم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، لا يعرف :

١ ـ الفصل بين دين ودولة ، إنما يعرف الحياة الإنسانية للفرد وفى علاقته بغيره .

٢ ـ ولا يعرف قضية للدين والعلم ، وإنما يعرف مؤمناً بالله يحكى صفاته فى نفسه من : علم ، وغنى ، وخلق وإبداع . . ويتقرب بما يحاكيه إليه جل شأنه .

٣ ـ ولا يعرف : حكومة إلهية ، ولا رفعاً لإنسان عن مستواه الإنسانى ، وإنما يعرف إنساناً يصيب ويخطئ فى تقديره وفى رأيه وفى علمه .

٤ ـ ولا يعرف : تفرقة بين الناس على أساس من العنصر والعرق ، وإنما يعرف أن الناس جميعاً سواء فى الاعتبار البشرى وفى المسئولية أمام الله ، وأن التفاضل بينهم هو فى مدى تحقيق مستوى الإنسانية فى تفكير المؤمن وسلوكه وعمله . . هو فى التقوى والعمل الصالح .

٥ ـ ولا يعرف : توكلاً على السعى والعمل ، وإنما يعرف متوكلا ومعتمداً على الله سبحانه ، بعد العزم وتحقيق الطريق الذى يسلكه فى سعيه وفى عمله .

٦ ـ ولا يعرف : إنساناً مادياً أنانياً يطغى بماديته وأنانيته ، وإنما يعرف إنساناً محسناً . يعطى من إنسانيته على الأقل بقدر ما يأخذ إن لم يكن يعطى أكثر .

٧ ـ ولا يعرف : إنساناً راهباً أو مترهباً ، وإنما يعرف إنساناً يستمتع بمتع الحياة وبزينتها فى غير غلو وفى غير ترف يجر إلى العبث والفساد .

---

(١) يس : ٧٤ ـ ٧٥

٨ ـ ولا يعرف : مالاً منفعته خاصة ، وإنما يعرف أن المال إذا كانت ملكيته خاصة فوظيفته إجتماعية ومنفعته عامة للناس جميعاً ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (١) .

٩ ـ ولا يعرف والياً يطلب الولاية فيُولّى ، وإنما يعرف الولاية بيعة واختياراً ممن يملك حق الاختيار فى الأمة .

١٠ ـ ولا يعرف عصياناً لوال يولى إلا فى معصية مؤكدة لله ولرسوله .

أى شئ قبل هذا أو بعد هذا يصلح أن يكون بديلا عنه فى حياة الإنسان وفى شئون أفراده ؟ .

قرآن الله موجود بأيدى المسلمين . وليس لهم أن يشكوا من ضعف أو هزيمة إلا أنفسهم .

* * *

والتقدم العلمى والتكنولوجى لا يغنى عن الإسلام ، دين الله ورسالة خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام فى إسعاد البشرية وفى خيرها وفى الترابط والاطمئنان بينها .

إن التقدم العلمى والتكنولوجى يساعد على التطور المادى وتوفير الإمكانيات المادية للبشرية .

ولكنه لا يحول دون أن يحتكر فريق من الناس هذه الإمكانيات ويحرم منها فريقاً آخر .

. . . لا يحول دون أن توجد هذه الإمكانيات المادية للإضرار ببعض الناس ولشقائهم .

. . . لا يحول دون أن تكون هذه الإمكانيات مصدر تهديد للقلق والخوف للبشرية كلها ونذير سوء بمستقبلها .

. . . لا يحول دون أن تكون هذه الإمكانيات سبباً لتربص بعض الناس ببعض ولغدر بعضهم لبعض .

---

(١) النحل : ٧١

. . . لا يحول دون أن تكون هذه الإمكانيات عاملا للفساد والعبث والتحلل من القيم الإنسانية العليا .

فإذا أضيف إلى الإسلام فى الدولة العصرية العلم والتكنولوجيا أصبحت هذه الإمكانيات المادية التى يوفرها التقدم العلمى والتكنولوجى : فى خدمة «الإنسانية» .

. . فى خدمة الخير والنفع العام

. . فى خدمة القيم العليا للمجتمع الإنسانى العالمى

وليست فى خدمة الأنانية :

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (وهم اليهود والصليبيون) وَلاَ الْمُشْرِكِينَ (وهم الوثنيون الماديون الملحدون [1]) أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [2]

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [3] .

وصدق الله العظيم ..

* * *

(١) ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (فصلت : ٦ ، ٧) فطابعهم طابع مادى صرف . وإذا تحدثوا عن الدين : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ . (فصلت : ٢٦) .

(٢) البقرة : ١٠٥ (٣) البقرة : ١٠٩ ، ١١٠